

منبر

جريدة النهار، 22 كانون الثاني 2018  
ياسين سويد، مرايا الأحوال. أبحاث في أحوال البلاد والعباد، ج1 و2، 2012 و2016

عبد الرؤوف سنّو

## لبنان والعالم العربي بانتظار العلمانية وصلاح الدين

قد يكون أول تعليق على كتاب اللواء الدكتور ياسين سويد: "مرايا الأحوال"، هو أنّ هذا الرجل المؤرّخ لا يجد الراحة إلاّ في متابعة البحث في كلّ قضية يرى أنّ مجتمعه اللبناني والعربي بحاجة الى الإضاءة عليها، والتبخر في أسبابها، والإلاء برأيه فيها. حتى تاريخه، فإنّ ثمرة نتاجه نحو خمسين مؤلّفاً وموسوعة، تتمحور حول التاريخ اللبناني والعربي والإسلامي. إنّه بالفعل عمل جيّار وشاق ومتعب، أن يكتب المرء بقلق كل هذه المؤلفات التي تتعلق بمصير أمّته التي تسير إلى الوراء، وشعوبها التي تدفع ثمن تخاذل أنظمتها وفسادها من كرامتها ولقمة عيشها، في ظلّ عدو صهيوني يبتلع الأرض والمقدسات والهوية معاً. وإذا احتسبنا "رحلة العمر" للدكتور سويد، كما جاء في الجزء الأول من كتابه "مرايا الأحوال"، فهي طويلة بالفعل وغنيّة حقاً: عشرون عاماً على طاولة الدراسة، وأربعون أخرى في السلك العسكري، وعشرون سنة بعد التقاعد، تخلّلتها كلها مسارات بحثية من دون توقّف .

بقسوة، ينتقد اللواء الدكتور سويد في كتابه الأوضاع السائدة في لبنان والعالم العربي، وهدفه تصحيح المسار والمسيرة. وعندما يدرس الماضي البعيد ليطلّ منه على الماضي القريب، لاستشراف الحاضر، فهو يكتب بحسرة وألم، عن أمجاد حضارية، ومقاومة شرسة ضدّ الاستعمار، تجرّت بسبب خلافات العرب وتناحرهم، فيما حاضرهم حزين ومرعب.

"مرايا الأحوال"، وضعه مؤلّف ومراقب متمرّس، فهو مؤرخ، وعسكري، واستراتيجي، يستفيد من تلك الميزات، ليُدلي بدلوه، ويستنتج ممّا يقرأه ويراه ويسمعه.

وفي الجزء الأول من كتابه سنّة أبواب مصنّفة وفق الموضوعات الآتية: لبنانية وقومية وعسكرية وتاريخية واستراتيجية، وأخيراً أبحاث متنوّعة. وفي الجزء الثاني سبعة أبواب، منها اثنان يتعلّقان بلبنان الحديث والمعاصر، وبالقدس المحتلة التي يعتبر الدفاع عنها مسؤولية عربية، وكأته، وقد صدر الجزء الثاني من كتابه العام 2016، يستشرّف فيه فرار الرئيس الأميركي دونالد ترامب الذي أعلن عنه قبل أسابيع قليلة بجعل القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، ونقل سفارة بلاده إليها. أمّا الأبواب الخمسة المتبقية، فتطلّ ثلاثة منها على تكريمه من قبل مؤسسات لبنانية وأجنبية، فيما يتناول الفصل السادس سيرته الذاتية، كما يراها، منذ أن ولد في كفرحمام، إلى دراسته الابتدائية والثانوية والجامعية، ونيله شهادة الدكتوراه، ويتخلّلها الانتساب الى

المؤسسة العسكرية والتخرّج منها العام 1953، ثمّ تقلّده مهمات عسكرية كضابط ركن في الجيش اللبناني. كذلك، ممارسته مهنة التعليم الجامعي والتأليف، والقيام برحلات أكاديمية الى الخارج. أمّا الفصل الأخير "من خبايا الذاكرة"، فهو قصائد وطنية، تكشف، الى جانب مؤلفاته الكثيرة، جوانب من ماهية سويد وشخصيته. في "وطن الأرز" يتلو المؤلف "أنشودة حبّ لبلاده وهيامه بأرضه". وهذا ليس غريباً على عسكري ولد في الجنوب يدافع عن وطنه ويهب دمه وروحه، ويعرف كم تشكّل إسرائيل خطراً على لبنان وعلى فلسطين والأمة العربية.

نتعرّف في الكتاب الى سويد، خصماً عنيداً للطائفية السياسية، فهي، برأيه، السبب الأساس في تخريب التعايش بين اللبنانيين. ويقول: "إنّه عجز عن إقناع نفسه بعدالة نظامنا اللبناني" (ج2، ص9) الذي يحتضن تلك الطائفية. لذا، فهو يمقت، نظرياً وعن تجربة، الطائفية السياسية والطائفية المجتمعية. فيستخدم عبارات لاذعة في انتقادهما، ويرى أنّ الفيدرالية بدورها طائفية مقنّعة ومدمّرة. صحيح أنّ خلفية الباحث إسلامية، منذ نشأته، إلا أن ممارساته وطنية، مع البعيد والقريب. لذا، يقترح حكماً علمانياً، أو أي حكم بعيد عن الطائفية، يقوم على نظام الأكثرية والديموقراطية التمثيلية. ولكن النظام الأكثرية يحمل، برأينا، مخاطرة غير محسوبة، قد تؤدّي الى تدمير لبنان، في ضوء الثقافة الطائفية والمذهبية، وحبّ التسلّط على "الأخر"، بأنّ تفود إلى اصطفاف فئوي أو طائفي أو مذهبي، بحيث تهيمن الأكثرية على الأقلية، أي كما يحصل في البلدان العربية والإسلامية، وفي الكيان الصهيوني، حيث تتفنّن الأنظمة هناك في اضطهاد الأقليات عندها وسلبها حقوقها المشروعة، وعندها لن يكون لبنان استثناء. لذا، يسارع اللواء سويد الى المطالبة، عن اقتناع، بالتنوع والتربية الوطنية والتوجيه اللطائفي، قبل اعتماد "ديموقراطية الأكثرية".

على الصعيد القومي، وقف سويد ضدّ الصهيونية، عقيدة وممارسة، وضدّ إسرائيل كدولة تغتصب حقوق الفلسطينيين في أرض أجدادهم. ويعتقد، أنّه مهما حاول العدو الإسرائيلي التطبيع مع الأنظمة العربية، وتأمين الاعتراف به، فسيظلّ غريباً منبوذاً من الشعوب العربية. لكنه يعبر، من جهة أخرى، عن نقمته على تلك الأنظمة وسياساتها المتخاذلة تجاه الحقّ العربي في فلسطين، والارتداء في الحضن الأميركي الذي يدعم إسرائيل، عسكرياً ومالياً ودبلوماسياً ومعنوياً. فيدعو الى مقاومة التطبيع معه، على الصعيدين الرسمي والشعبي.

وليس من قبيل الصدفة، أن يخصّص المؤرّخ سويد الباب الثاني من الجزء الثاني للسلطان صلاح الدين الأيوبي. فيرى فيه، وهو الكردي الأصل، المحرّر والموحد والمنقذ للأمة العربية من الاحتلال الصليبي. وكأنّه يحاول أن يستدعي القائد صلاح الدين مرّة أخرى لإنقاذ العالم العربي من الاحتلالات الداخلية المتجسّدة بالأنظمة الفاسدة التي لم يزحها "الربيع العربي" عن "عروشها"، كما الاحتلال الصهيوني الذي على وشك ابتلاع كلّ فلسطين، فيما القادة العرب لاهون بخلافاتهم وجمع الثروات وتوريث أبنائهم. فيقول اللواء سويد: إنّ صلاح الدين "أيقن أنّ هذا من أهمّ عوامل انهيار المقاومة الإسلامية أمام الغزو الصليبي"، وهذا يتطلّب استراتيجية واضحة ومحدّدة... (ج2، ص66). لكن صلاح الدين "المنقذ" الذي ينتظره سويد منذ زمن بعيد، لن يظهر من جديد، والعلمانية التي يُطالب بها للبنان بفارغ الصبر، لن تطلّ برأسها، والأمة العربية التي يخاف عليها من التشتت، لن تعرف الوحدة.

هذا هو اللواء ياسين سويد، جندي فارس يمطي صهوة جواده ويحارب منذ ستين سنة ببندقيته وبقلمه وفكره، ويدلي بدلوه في قضايا وطنه وأمتّه. ومن لا يعرفه، عليه أن يقرأ "مرايا الأحوال"، ليرى كيف أنّ

اللبنانيين باقون على حالهم الطائفي، وأحوال العرب تتبدل من سيئ الى أسوأ، وأن لا "ربيع عربياً أيوبياً" ينشده ياسين سويد.

<https://newspaper.annahar.com/article/738262-%D9%84%D8%A8%D9%86%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D8%A8%D8%A7%D9%86%D8%AA%D8%B8%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%B5%D9%84%D8%A7%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86>